المتسوِّلتان

امرأة على مشارف الستين، ترتدي عباءة اختفى لونها من كثرة ما يرتع فوق خيوطها من بقع، طرحتها البالية تصرخ طالبةً عتقها، كسرٌ أصاب أحد ذراعيها فالتفّت حوله جبيرة استحال بياضها سوادًا، تقودها طفلة صغيرة لم تكن أحسن حالًا منها، غير أن أسوأ ما فيها أنها أطلقت العنان لأنفها فسالت منه قناتان زادتا من نفور الناس وإعراضهم.

تتنقل بين المارة في المحطة، يرقُّ قلب البعض فيعطيها، ويتغاضى البعض عجزًا أو قصدًا، تمنّيتُ أن تتخطّاني دون أن تطلب مني، لا يملك جيبي العاطل سوى عشرة جنيهات، بالكاد أصل بها إلى البيت، إنها آخر ما تبقى معي مما اقترضت من أمي قبل أسبوع بحثت خلاله عن عمل، حتى ذابت قدماي.

تلك هي المرة العاشرة التي أخرج فيها للبحث عن عمل، أحمل فوق ظهري بكالوريوس التجارة الذي أفخر به كثيرًا، بينما أعود في كل مرة بالوجه الذي خرجت به.

حدث ما خشيته، وقفت تلك المتسوّلة أمامي، شرعت في ترديد سلسلة من الأدعية التي تحفظها جيدًا، أعطيتها الجنيهات العشرة، بعد أن قررت الذهاب إلى البيت سيرًا على أقدامي الذائبة.

فضول لا أدري مصدره دفعني إلى السير خلفهما، ومراقبة تحركاتهما باهتمام، ربما شفقة خفية على تلك الطفلة التي تقطع المسافات بصبر عجيب حيّر قدميها الصغيرتين، وهي تجعل من يدها عكازًا لرفيقتها العجوز.

جابا شارع المحطة بأكمله، وكذا الشوارع المجاورة، جمعا مبلغًا ليس بالقليل، مع إهانات لا بأس بها، تعرّض لهما أحد المارة -حين استعطفاه بشكل أثار حفيظته-؛ فاشبعهما سبابًا كاد يتحول إلى اشتباك بالأيدي، سارعتُ بالتدخل، لكن سبقني أحد الواقفين وأنهى الموقف.

_ أيّ رجل ذلك الذي يعول هاتين، يتركهما هكذا للإهانة والإذلال؟!

بعد جولة استمرت ساعة كاملة، لا يزال الفضول مسيطرًا عليّ، دخلتا إحدى العمارات التي أعرفها جيدًا، إنها العمارة التي يقطن بها صديقي (سمير) لم أره منذ أسبوعين، لعلها فرصة، ولجت باب العمارة، في المصعد اجتمع ثلاثتنا، الصغيرة تمسك بكيس وضعت فيه ما جمعت من نقود، انكبت عليه تحسب قيمتها، والمرأة تحرك ذراعها الملتف بالجبيرة بشكل طبيعي كأن كسرًا لم يلمّ به..!

في الطابق الخامس حيث تقع شقة صديقي، خرجت المتسولتان من المصعد، تبعتهما، وقفتا أمام إحدى الشقق المقابلة لشقة (سمير)، تبحث الصغيرة عن شيء في الكيس الذي تحمله.

أمام شقة (سمير) كاد الفضول يقتلني، سألته عن تلك المرأة وصغيرتها، فقال:

_ هذه الحاجة (سكينة) صاحبة العمارة وحفيدتها.

وقفت مندهشًا، ألعن شهادتي، وأتحسر على جنيهاتي العشر.